الطفولة والفتوة

لم يكن أوائل القياصرة من سلالة رومانوف، شأن الرُوس عموما في القرنين السَابع عشر والثَّامن عشر، من المعمرين، فإن مؤسس هذه السلالة ميخائيل فيودوروفيتش عاش خمسين عامًا ونيفًا، وعاش ابنه الكسي عمرًا في حدود عمر أبيه، وكان ذلك أيضًا من نصيب أحد أحفاد القيصر ميخائيل، ونعني إمبراطور روسيا الأول بطرس الأكبر، فقد منحته الأقدار أقل من خمسة عقود ونصف.

كانت عائلة القيصر الكسي ميخائيلوفيتش، والد بطرس الأكبر، كبيرة، فقد رُزق بأطفال كثيرين ولدوا الواحد بعد الآخر، وفي الستينيات بلغ عددهم ثلاثة عشر، ورغم هذا النسل الكبير لم يكن القيصر الأب موفقًا جدًا في هذه الناحية، بعض الأولاد انتقلوا إلى جوار ربهم في سن مبكرة، وأغلبية الباقين إناث، مات بعض الذكور رضعًا، ونما البعض الآخر ضعافًا الأمل فيهم قليل، وكان القيصر «الهادئ»، كما نعتوه آنذاك، حزينًا كئيبًا، فعهد أبناءه إلى أطباء حكماء يسهرون عليهم، لكن ذلك لم يعد عليهم بنفع يذكر، ولم يبق إلا الابتهال إلى الباري وانتظار المعجزة.

وبعد وفاة القيصرة ماريا ميلوسلافسكايا تزوج الكسي ميخائيلوفيتش للمرة الثانية، ووقع اختياره هذه المرة على ناتاليا كريمة كيريل ناريشكين، وهو رجل من عامة نبلاء سمولينسك الذين لا يعتبرون من الوجهاء، وفي ٣٠ آيار (مايو) ١٦٧٢ ولدت القيصرة الشَّابة الموفورة

الصحة ابنها بطرس، وكانت آنذاك في الحادية والعشرين، بينما كان القيصر الكسي يكبرها بمثل عمرها.

وبمناسبة «الفرحة العمومية»، كما كانوا يقولون آنذاك، جرى احتفال مهيب بميلاد الطفل الرّابع عشر للقيصر الأب، فطول نهار الثلاثين من آيار دقت مئات النواقيس في جميع كنائس وأديرة موسكو، وأقيمت الصلوات فيها، وفي كاتدرائية أوسبينسكي (العذارء) أقام الصلاة الأب بيتيريم مطران نوفغورود، ومطرانان آخران، وثلاثة من رؤساء الأساقفة، وبعد الصلاة تقدم بالتهاني إلى القيصر رجال الدِّين والحاشية من البويار[1] وكبار الموظفين، وزار القيصر مع حاشيته جميع كنائس الكرملين لأداء الصلاة، وعاد الموكب إلى القصر، وهنا، في صالة الطعام، منح والد القيصرة الشَّابة رتبة أحد كبار الأعيان، وحاز على نفس هذه الرتبة ارتامون ماتفييف، الرجل المحنك الهمام الذي كان في الماضي غير البعيد آمرًا لأحد أفواج القوات الخاصة (ستريلتسي)، وكانت القيصرة الجديدة قد تربت في منزله، وقد جرت العادة من قديم الزمان على أن يرتقي أقرباء القيصرة والمقربون إليها سلم البلاط بسرعة، ولذا دخل محاسيب القيصر الجدد ـ من جهة عقيلته ـ مجلس دوما البويار، أعلى هيئة استشارية في البلاط، وانضموا إلى صفوف ارستقراطية العاصمة.

وفي نفس اليوم قدم القيصر في صالة الضيافة خمرة الفودكا، وأنواع النبيذ الغربي مع التفاح والأجاص والكمثرى المنقعة بالدبس، وفي دهليز المدخل قدم مدير الأسلحة بوغدان خيتروفو الشراب لآمري القوات النظامية الخاصة وقادة العسكر، وبسبب قرب موعد الصوم تأجلت الوليمة الفخمة، واكتفوا بغداء متواضع في الصالة المذهبة العائدة لعقيلة القيصر، ومن جديد قدموا الفودكا والفطائر والتفاح والتين المنقع بالدبس، ونقيع الفواكه في أباريق خزفية.

(١) الأعيان والوجهاء من كبار الأرستقراطيين.

وفي الأول من حزيران (يونيو)، وهو اليوم الثالث بعد ميلاد بطرس، كلف سيمون أوشاكوف أفضل رسامي الأيقونات في موسكو بإعداد أيقونة الثالوث، وبطرس الرسول على لوح من السرو بحجم وليد القيصر، الذي شرع الرسام الشهير بالعمل في إعداد الأيقونة تكريمًا له (وبسبب مرض أوشاكوف أنجز الأيقونة رسام آخر من الحاشية هو فيودور كوزلوف).

وبعد شهر، في ٢٩ حزيران جرى تعميد بطرس في كنيسة القديس الكسي في دير تشودوف (المعجزة)، وفي اليوم التّالي أعدت في صالة «غرانوفيتايا» (المضلعة) «مائدة الوليد»، وهي مأدبة احتفالية فخمة تضمنت كل ما لذّ وطاب من مأكولات وشراب، ومن ذلك أطباق الحلوى، حيث وضعت على المائدة فطيرة سكرية بهيئة شعار الدولة الرّوسية، وطيور مصبوبة من السكر، هي نسران أبيض وأحمر، وبجعة ووزة وببغاء وحمامة، ومنحوتة تمثل الكريملين بأبراجه ومدافعه، والناس فيه وما إلى ذلك، بالإضافة إلى عجائب وغرائب أخرى، وكالعادة تقدم المدعوون من كبار رجال الدّين والوجهاء، وبينهم أمير جورجيا وأمراء قاسموف وسيبيريا، والتجار الأثرياء، وقادة العساكر، وممثلوا الحرفيين، والباعة بالهدايا إلى الوليد كالكؤوس البلورية والخواتم الذهبية والأقداح والصلبان.

وبعد أيام، في ٤ تموز (يوليو) أعدت في نفس الصالة المضلعة «مائدة التعميد»، وأقامت القيصرة مثل هاتين الوليمتين في نفس هذين اليومين في صالة الطعام المذهبة العائدة لها، وجرى الاحتفال بميلاد بطرس بفخامة وفخفخة ومرح بالغ، كما هي العادة في مثل هذه الأحوال. وأحاطت بالوليد «حاشية» كاملة تسهر عليه وترعاه، وتتكون من كبيرة المربيات الأميرة أوليانا غوليتسينا من البويار، والمرضعة نينيلا يروفييفا، ومشرفة على البياضات والثياب، وخمس نساء لترتيب المهد، وخُصصت له غُرفتان متميزتان، جدران إحداها ملبسة بجلد ونقوش فضية مجسمة، وجدران الأخرى مكسوة بجوخ أحمر صنع في هامبورغ، وأعد صنّاع مهرة مهد الوليد وثيابه، وأعدوا له فيما بعد ـ حسب تدرجه في العمر ـ مختلف الألعاب

كالكراسي والخيول الخشبية، وبعد ذلك طبول الأطفال، والآلات الموسيقية كالكلافيكورد (البيانو البدائي) والسمبال وعربة، وجاء دور «كتب التسلية» المزينة بالرسوم، إلا أن الصبي ـ كما أشار المحيطون به ـ يحب أكثر ما يحب الألعاب ذات الصفة العسكرية، القوس والنشاب، والسيوف والبنادق والطبول و«الناقوس المسلى»، كان الصبي الحرك النابه يلعب «لعبة الحرب»، فعنده فوج كامل من الصبيان، وهم أترابه من أبناء الوجهاء، وقد عودوهم جميعًا على الانضباط وعلموهم ودربوهم، واهتم القيصر الأب شخصيًا بذلك، فعين لهذا الغرض أحد الأجانب الذين كانوا في خدمة البلاط، وهو الأسكتلندي بافل مينيزيوس، ذلك الرجل المحنك الشاطر الذي زار في شبابه عدة بلدان أوربية، و يجيد عدة لغات مختلفة، ويتحلى بروح المغامرة، كان يخدم في بولونيا فأسره الرُوس، كان من محسوبي القيصر الكسي الذي كلفه بعدة مهمات دبلوماسية خطيرة، حيث أرسله، مثلاً، في مهمة إلى بابا روما، استقر مينيزيوس في روسيا وتزوج من أرملة أجنبي آخر، هو مارسيليز صاحب مصانع التعدين في تولا وكاشيرا، وعين مينيزيوس في منصبه الجديد هذا بعد عودته من روما.

مرت سنى الطفولة الأولى في دعة ومرح واطمئنان، لكن الغيوم الأولى سرعان ما ظهرت إلى الوجود، ففي العام الرابع من الطفولة فقد بطرس أباه الذي قضى نحبه في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٦٧٦، واعتلى العرش فيودور الكسييفيتش قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من العمر، وهو فتى عليل لا يكاد يقوى على تحريك قدميه، كان كما قالوا في قديم الزمان، «يجرجر رجليه»، وأكد الحكماء من عجائز البلاط والأطباء الأجانب أنه مصاب بالأسقربوط.

كان القيصر فيودور وأخوه إيفان الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر من أبناء القيصر الراحل الكسي من زوجته الأولى ميلوسلافسكايا، ولذا استلم السُلطة أقرباؤها مع أشياعهم الذين كانوا يشكلون في البلاط ما يشبه«الكتلة» أو «العصبة»، وانسحب آل ناريشكين وحلفاؤهم إلى

الظـل، ونفـى ارتامون ماتفييف مربي عقيلة القيصر ومستشـارها والوزير الأول في الحكومـة في السـنوات الأخيرة مـن حياة القيصر الكسـي، أما الباقون فقد نحوا من مناصبهم.

إلا أن بطـرس الصغير ظل يلعب نفـس الألعاب في الكريميلين دون أن يدرك طبعًا لماذا تذرف أمه الدموع؟ ولماذا يحزن أقرباؤه الآخرون؟، ظل المربون والمربيات يسـهرون عليه كالسَّـابق، وحلت ماتريونـا ليونتيفا ـ وهي من البويار أيضًا ـ محل كبيرة المربيات الأميرة غوليتسينا بعد وفاتها.

وظهرت هموم ومشاغل جديدة، فقد قال القيصر فيودور ذات مرة لزوجة أبيه القيصرة ناتاليا: حان الوقت يا صاحبة الجلالة لتعليم الصبي.

كان القيصـر فيـودور أشـبينًا لبطرس، ولـذا اهتم به حسـب الأصول، وكان بطـرس آنـذاك في بدايـة السَّادسـة من العمـر، ووافقـت القيصرة علـى تعليم أبنهـا، لكنها طلبت أن يجـدوا له معلمًا متواضعًا متسـامحًا ملمًـا بالكتـاب المقـدس، وكلَّـف القيصر البويـار فيودور سـكوفنين بالبحث عن معلم مناسب، والمعروف عن سكوفنين أنه متدين من المنشقين المتمسـكين بالمذهـب القديـم، وكانـت بنتـاه فيودوسـيا موروزوفا التي جسـد الرسام الرُوسي سـوريكوف صورتها في لوحته الشهيرة «موروزوفا»، والأمـيرة أفدوتيـا أوروسـوفا قـد تجرعتـا الموت وصارتـا من المعذبين بسـب «الإيمـان القديـم»؛ لتعصبهمـا لـلأب أباكوم الـذي أحرق في عـام ١٦٨٢، ونصـح سـوكوفنين باسـتخدام نيكيتـا زوتوف، وهو موظـف صغير في مديريـة العائدات والضرائب، ومثل زوتوف أمـام القيصر فيودور والقيصرة المترملة ناتاليا، وترسـم هذه المقابلة لوحة بليغة للأعراف الرُوسـية القديمة في ذلك الزمان، فقد رافق سـوكوفنين المعلم المتواضع الفاضل وتركه في صالـة الضيافة ودخل على القيصر ليبلغـه، وبعد لحظات ظهر أحد النبلاء وسـأل: من منكم نيكيتا زوتوف؟ فارتبك زوتوف أشـد الارتباك وتجمد لا يقوى على تحريك قدميه، أمسك السكرتير بمرفقه، ولكن دون جدوى، فالمعلـم الفاضل لم يتزحزح من مكانه، واسـتعطف السـكرتير أن يمهله

قليلًا حتى يستعيد قواه، وظل واقفا برهة، ثم رسم شارة الصليب، ودخل على القيصر وهو يردد اسم المسيح، مدّ له القيصر يده فقبلها المعلم، وبدأ امتحان القراءة والكتابة بحضور الكاهن البيلوروسي النحرير سيميون بولوتسكي، الشاعر والكاتب المعروف ومربي فيودور الكسييفيتش نفسه، واستحسنوا معارف زوتوف، ورافقه سوكوفنين ليقدمه إلى القيصرة المترملة ناتاليا، وحظي بإعجابها:

ـ أعرف أنك حسن السلوك متضلع في الكتاب المقدس، لذا أعهد إليك بوحيدي.

ترقرقت الدموع في عيني زوتوف وركع أمام القيصرة:

ـ أنا لا أستحق هذا الشرف العظيم يا صاحبة الجلالة.

مدت القيصرة ناتاليا يدها للمعلم راضية على طاعته وتواضعه، وأمرته أن يبدأ دروسه في صباح غد، فنفذ المعلم الأمر، وحضر القيصر والبطريرك الدرس الأول، أدوا الصلاة وبارك البطريرك المعلم، وانحنى هذا الأخير احترامًا لتلميذه الجليل، وجلس معه وأمامهما كتاب الأبجدية، وفي الحال منح البطريرك يواكيم المعلم مئة روبل، وهو مبلغ كبير في مقاييس ذلك الزمان.

كما رفع القيصر فيودور منزلته فصار من النبلاء، وبعثت القيصرة ناتاليا إلى زوتوف طقمين من البياضات والثياب الثمينة جدًا ليكون «كامل البزة والهندام».

وما أن انصرف القيصر والبطريرك حتى غير المعلم ثيابه، وارتدى البدلة الجديدة، ولا أحد يدري من كان أكثر سرورًا، هل هو «الأستاذ» الراشد الذي يتحلى ببساطة الأطفال؟ أم الصبي بطرس وهو يتابع باهتمام كبير ـ في أغلب الظن ـ معلمه الذي يتودد له و يخشاه بالطبع خشيته من نار حارقة؟

كان غريغوري كوتوشيخين- وهو موظف في مديرية العلاقات الخارجية فرّ في حينه إلى السويد- قد كتب في مؤلفه «روسيا في عهد القيصر الكسي ميخائيلوفيتش» عن حياة وعادات البلاط في موسكو، وقال إنهم كانوا يختارون لتعليم أبناء القيصر«معلمين هادئين لا يحبون المسكرات».

وكان زوتوف بالفعل معلمًا هادئًا يخاف اللّه، وقد لقّن بطرس الصغير مبادئ العلوم المقررة آنذاك، فاتقن الصبي الأبجدية، أي القراءة والكتابة، وحفظ عن ظهر قلب كتاب الصلوات والمزامير والإنجيل وكتاب الرُسل، وفيما بعد ظل يتذكر جيدًا نصوص الكتاب المقدس، ويستشهد بها، و يحب تلاوتها والإنشاد في خورس الكنيسة، وأولع بطرس النبيه بالكتب المزينة بالصور والرسوم، ومنها المؤلفات التاريخية، وربما هي نصوص السجلات والتواريخ المزينة بالمنمنمات، وبأمر من القيصرة المترملة أخذ رساموا البلاط، العاملون في غرفة الأسلحة في الكريملين يعدون رسومًا لبطرس تصور بالأصباغ واللون الذهبي مدنًا وبنايات وسفنًا ومعارك وأسلحة وجنودًا، وكان الصبي يتصفح«الدفاتر المسلية» هذه، وفيها مختلف القصص والحكايات، باهتمام بالغ وولع شديد، وعندما يتعب من ذلك يعرض عليه زوتوف الصور بنفسه، ويقدم له توضيحات بخصوص أحداث عهد فلاديمير الأول القديس، والكسندر نيفسكي، ودميتري دونسكوي، وإيفان الرهيب، ووصل في أحاديثه إلى عهد والد بطرس، القيصر الكسي ميخائيلوفيتش، وقصّ عليه أحداثًا مشهودة مهمة في ذلك العهد، وهكذا تشبّع ذهن الصبي النبيه بمعلومات عن ماضي الوطن، وأمجاد أجداده.

باختصار؛ بذل زوتوف كل ما في وسعه لأجل تعليم بطرس المبادئ والأصول، ولقنه بما يعرفه هو بنفسه، واستخدم كل ما توفر له من وسائل تعليمية، أو وسائل إيضاح كما نقول الآن. وفيما بعد قدر بطرس الأكبر معلمه الأول حق قدره، صحيح أن هذا المعلم لم يكن يتحلى بالصفة الثانية

التي أشار إليها كوتوشيخين، وهي الامتناع عن المسكرات، لكن هذه الخطيئة جاءت فيما بعد، أثناء «مجمع السكر والعربدة والمرح» الشهير الذي أقامه بطرس الأكبر، القيصر المرح ومبتدع أفانين اللهو والتسلية.

ظلت القيصرة المترملة ناتاليا تقيم مع ابنها في الكريملين، بفضل تعلق القيصر فيودور بأخيه الأصغر، وربما بها أيضًا، أما سائر آل ميلوسلافسكي فلم يكونوا يحبون الغريمة زوجة الأب الشابة، وتجلى نفورهم منها فور وفاة القيصر فيودور في ٢٧ نيسان (أبريل) ١٦٨٢.

وورث عرش القيصر الراحل أخوه الأكبر إيفان، ابن ميلوسلافسكايا، والأصغر بطرس ابن ناريشكينا، أولهما في السَادسة عشرة، وهو يعاني من خلل عقلي وضعف بدني، والثاني في العاشرة سليم معافى ومرح يدهش الجميع بحيوية ونباهته وكثرة الحركة، وكما هو الحال دومًا في مثل هذه الأوضاع أثارت مسألة السُلطة صراعًا بين الكتلتين، ودوامة من الأحداث الدموية التي لم تكن متوقعة في الكثير من جوانبها، وتركت تلك الأحداث أثرًا نفسانيًا عميقًا في ذهن الصبي بطرس لم يتخلص منه مدى الحياة.

وتوافق الصراع الطَاحن من أجل السُلطة مع انتفاضة أفراد القوات الخاصة، وجنود حامية موسكو، وبعض الفئات الدُنيا من أهالي العاصمة، وكان أفراد القوات الخاصة المرابطون في موسكو القوة الرئيسة المحركة للانتفاضة دون شك، كانت هذه القوات جزءًا من الجيش الرُوسي (في عام ١٦٨١ بلغ عدد أفرادها في البلاد ٥٥ ألفًا، منهم في موسكو ٥,٢٢ ألف شخص، وكان الموجودون منهم فعلاً في العاصمة ربيع ١٦٨١، ١٩ فوجًا ضمت ١٤١٩٨ شخصًا)، وكانت تحرس الكرملين وتحافظ على النظام في العاصمة، وتقمع عند الاقتضاء القلاقل، والنضالات الشعبية ضد السُلطات والوجهاء، وكان أفرادها يستلمون مرتبات لقاء الخدمة، لكنها مرتبات غير منتظمة، وقد تقلصت لحد النصف في أواسط القرن السَابع عشر، ومن أجل كسب القوت سمحت السُلطات لأفراد القوات الخاصة

بممارسة التجارة والصنائع مما يعود بدخل معين، واعتبارًا من منتصف القرن المذكور أُرغموا على تسديد الضرائب بعد أن أعفتهم السُلطات منها فيما سبق، ومما زاد من سخط أفراد القوات الخاصة (وكذلك الجنود والمدفعيين وغيرهم من صغار المستخدمين) التعسف والابتزاز والرشاوي التي دأب عليها موظفو المديريات والقادة.

كان أفراد القوات الخاصة قد تشكوا من الآمرين في الشتاء والربيع، ولكن دون جدوى، أما الآن فقد اتخذت القضية مجرى آخر بسبب استبداد السُلطة والصِراع بين تكتلات البلاط، وبناء على اقتراح من البطريك بواكيم، وتأييد قسم من البويار، نُصب بطرس البالغ من العمر عشر سنوات قيصرًا لروسيا، وتزعمت أمه بوصفها على العرش عصبة ناريشكين التي استلمت مقاليد السُلطة، لكن أم بطرس لا تتحلى بأية مواهب لإدارة دفة الدولة، ولم يكن يتحلى بتلك المواهب أحد من إخوانها وأقربائها الآخرين، فهم لا يمتلكون خبرة سياسية، لذا أخذوا يستأثرون بالرُتب والمناصب دون حساب.

في حين كانت الانتفاضة تختمر في العاصمة، نفد صبر أفراد القوات الخاصة بسبب تدهور أحوالهم المعيشية، فراحوا يلتقون في اجتماعات سرية وعلنية، ويناقشون مطالبهم، ويسجلون أسماء الأشخاص الذي تمادوا في التعسف لينتقموا منهم.

وفي ٣٠ آيار (مايو) أنذروا الحكومة بأن تسلمهم ١٦ قائدًا عسكريًا لينتقموا منهم، ونزلت الوصية أم القيصر ومساعدوها المرتبكون العاجزون عند هذا الطلب، فنحى القادة المذكورون من مناصبهم وتعرضوا للجلد بالسَياط، وكانت السُلطات تأمل بأن الأمور ستهدأ، وأن ماتفييف الذي أُعيد من المنفى على جناح السُرعة سيعمل على إحلال النظام حال ما يصل إلى موسكو، وأفادت الإشاعات أن ماتفييف هدد فعلًا بإخماد «قلاقل» القوات الخاصة، وأبدى رجالات الحكومة في موسكو، الأمراء من آل دولغوروكي وغيرهم استياءهم وحقدهم على أفراد تلك القوات بسبب

«عصيانهم» ومطالبهم، لكنهم لم يتمكنوا من إخماد لهيب الانتفاضة. ففي أواسط آيار وصل أفراد القوات الخاصة والجنود وفق خطة مرسومة مسبقًا إلى الكريملين، وشرعوا بعمليتهم التنكيلية، وقتل بأطبارهم ورماحهم ماتفييف ودولغوروكي الأب والأبن، وعدد من آل ناريشكين، ورؤساء القوات الخاصة، وموظفي المديريات، وسيطر الثوار على الموقف في العاصمة وأملوا إرادتهم على الحكومة، وبناء على رغبتهم غدا إيفان الكسييفيتش القيصر الأول، وأخوه بطرس القيصر الثاني، وسرعان ما صارت اختهما صوفيا وصية على العرش.

لقد شهدت نهاية ربيع ١٦٨٢، وصيفه وبداية خريفه النفوذ السياسي الكبير الذي كان لأفراد القوات الخاصة وأنصارهم الثائرين، فقد أطلق على تلك القوات في موسكو اسم «مشاة البلاط»، وأنشئت مسلة في السَاحة الحمراء تقديرًا لخدماتها في أحداث ١٥-١٧ آيار (مايو)، واستلم أفرادها رواتبهم المحتجزة من عدة سنين، ومنحوا الهدايا والهبات، واستعيدت من الآمرين السابقين- بالعصى أحيانًا- النقود المستقطعة من أفراد القوات الخاصة والجنود سابقًا (وفق قوائم معدة مسبقًا).

وما كان بوسع الصبي بطرس- السريع التأثر- إلا التألم لانتقام الثوار الدموي من أشخاص عزيزين عليه، فقد حدث ذلك على مرآى منه، وترك أثرًا عميقًا في نفسه، ولم يفهم آنذاك ولا فيما بعد عدالة شكوى أفراد القوات الخاصة من عذابهم وآلامهم، وظل سنين طويلة يختزن الحقد عليهم، بعد أن اجتاح فؤاده وهو في العاشرة من العمر، وفي أفضل الأحوال اختزن النفور منهم الذي كان يطفوا على السطح مرارًا، ويتخذ أحيانًا أشكالًا قاسية تتجاوز الحدود.

وكان معاصروه- ومنهم الأجانب الذين راقبوه فيما بعد- يرون أن ثورات الغضب، واهتزاز الرأس بعصبية تعود بقدر كبير إلى هزات تلك السنوات.

واتضح أن ثوار ١٦٨٢، رغم قوتهم الكبيرة في الأسابيع والأشهر الأولى من حركتهم، ضعفاء جدًا من الناحية السياسية، وكان لابد أن يتضح ضعفهم، فهم لم يكونوا يطمحون إلى السُلطة مباشرة، لأنهم لا يجيدون إدارة دفة الحكم.

وكان الأميران خوفانسكي، الأب والابن، وهما من آل غيديمينوفيتش (أحفاد الأمير الليتواني الكبير غيديمين) قد ترأسا مديرية القوات الخاصة، وأصبحا بمثابة الزعيمين لأفرادها الثائرين، لذا ظلت المطبوعات لأمد طويل تطلق نعت «الخوفانسكية» على الانتفاضة نفسها في موسكو، وهذا هو أيضا اسم أوبرا موسورغسكي الرائعة، أما في الواقع فإن آل خوفانسكي لم يكونوا بالطبع زعماء للانتفاضة؛ لأنهم لم يتبنوا أهداف المشاركين فيها من أفراد القوات الخاصة بالدرجة الأولى، وهم من أبناء الشعب البسطاء (الفلاحين والحرفيين والأقنان)، لكن دوامة الأحداث المأساوية العاصفة اجتذبت هذين الأميرين الطامعين في السُلطة والمال والامتيازات، ولذا شاءت الأقدار أن يكونا في قارب واحد مع أناس غريبين عليهما اجتماعيًا، وحاولا أن يتعكزا عليهم في الصراع من أجل السُلطة، ولم يحالفهما الحظ.

فقد كسبت المعركة صوفيا الوصية على العرش، وأشياعها الشطار من أمثال الأمير غوليتسين الذي نصبته مستشارًا ورئيسًا للحكومة، وكذلك رجل الأعمال النابه النشيط شاكلوفيتي (وكلاهما من أحباب الأميرة صوفيا، الأول في بداية وصيتها والثاني في نهايتها)، وغيرهما، وسيطر هؤلاء على الموقف مستفيدين من هيبة السُلطة القيصرية، وقد اتخذوا لهم مقرًا في دير ترويتسا سرغييف (الثالوث والقديس سيرغي)، وبمساعدة قوات النبلاء المحتشدة في مختلف مدن ضواحي العاصمة؛ أرغموا الثوار على الاستسلام في خريف ذلك العام، وغدت السُلطة الفعلية في يد صوفيا ابنة القيصر الكسي من زوجته ميلوسلافسكايا، وهي فتاة ذكية متغطرسة، واستمر حكمها سبع سنوات.

وطوال تلك الفترة ظل بطرس وإيفان رسميًا قيصرين لروسيا، يشاركان في مراسيم استقبال السفراء والمواكب الكنسية وغيرها، لكن بطرس وأمه لم يلعبا أي دور في الشؤون السياسية، زد على ذلك أنهما صارا بمثابة منفيين في بلدة بريوبراجينسكويه التي غدت مقرًا للقيصرة المترملة التي أفل نجمها مع ابنها، ويقول الأمير كوراكين ذو النباهة وحدة الملاحظة، الذي غدا فيما بعد من أبرز الدبلوماسيين الروس، أنها «عاشت على ما تتفضل به عليها الأميرة صوفيا»، وكانت تتلقى مساعدات مالية سرية من البطريرك يواكيم الذي أشف.ق على بطرس وأمه، ومن مطران روستوف، ومن دير الثالوث، والقديس سيرغي، وما كان بوسع ناتاليا كيريلوفنا وحاشيتها أن تسكت بالطبع على ضياع السُلطة والنفوذ، إلا أن الغضب والتذمر في قصر بريوبراجينسكويه الذي أفل نجمه لم يعكرا صفو القيصر الأصغر بطباعه الفوارة، وغالبًا ما كانوا يجلبون له من مستودعات الكريملين إلى بريوبراجينسكويه مسدسات وبنادق وغيرها من الأسلحة، وطبولًا وغيرها من المصنوعات الحربية، والذخيرة (الرصاص والبارود)، والرايات، ولم يكن القيصر الفتى يحب الاستقرار في مكان واحد، فترك بريوبراجينسكويه إلى فورونيوفو ومنها إلى كولومينسكويه، وراح يتردد على دير الثالوث، والقديس سيرغي تارة، ودير ستوروجيفسكي (القديس سافا) بضواحي زفينيغورود تارة أخرى، وتتنقل معه «مستلزماته الحربية»، وأبدى اهتمامًا بمطبوع بعنوان «كتاب البارود»، فجلبوه له من غرفة الأسلحة في الكريملين.

وكان يأتي أحيانًا إلى الكريملين نفسه فيشارك ـ مثلًا ـ في مراسيم السفراء ذات مرة أثناء حفله استقبال السفير السويدي صيف ١٦٨٣ أثار دهشة الأجانب فكتب سكرتير السَفارة كيمفر بهذا الخصوص وصفًا بليغ الدلالة:

ـ في صالة الاستقبال الملبسة بالسجاجيد العثمانية جلس كلا القيصرين تحت الأيقونات على عرشين فضيين، وهما بكامل بزة

القياصرة التي تومض أحجارها الكريمة، الأخ الأكبر (إيفان) جلس دون حراك تقريبًا، وهو يحدق في الأرض دون أن ينظر إلى أحد، وقبعته تكاد تغطي عينيه، والأخ الأصغر (بطرس) يتطلع في وجوه الجميع مفتح الأسارير جميلاً، ينضح فتوة كلما خاطبه أحد، جماله المدهش أذهل جميع الحاضرين، وحيرت حيويته كبار موظفي موسكو الرزينين. وعندما سلم السفير أوراق اعتماده، وكان يليق بكلا القيصرين أن ينهضا في وقت واحد ليستفسرا منه عن صحة الملك، لم يترك بطرس وقتًا للرجال المكلفين بمساعدته مع أخيه كي ينهضا، كما تتطلب المراسيم؛ بل هرع من مكانه ورفع قبعته القيصرية بنفسه، وطرح السؤال المعتاد بلهجة سريعة: كيف حال شقيقنا عاهل السَويد؟ هل هو بخير؟

إلا أن بطرس في تلك السنين ركز جل اهتمامه على الألعاب العسكرية «المسلية»، وجعل تلك الألعاب موضع اهتمام طائفة كبيرة من أترابه ومن الصبيان الأكبر منه سنا.

وقد ترك أبوه الراحل دوائر كاملة لرعاية الخيل والصيد بواسطة الصقور، فقد كان مولعًا جدًا بهذه الأمور، وانتقل لخدمة بطرس مئات من ساسة الخيل، والصيادين المهتمين بالقنص بواسطة الصقور، والبواشق ممن ظلوا بلا عمل، إلا أن بطرس لم يكن يطيق القنص بالصقور، وهو يفضل الركض على قدميه، ولا يحب الجولات المهيبة، لكنه جمع كل هؤلاء الصيادين وخدم البلاد وغيرهم في كتائب «الألعاب».

وإلى جانب الوجهاء أُدرج في صفوفها الأقنان السابقين، وغيرهم من«البسطاء» بشرط أن يكونوا شطارًا مرحين يؤدون المطلوب، ونشأ بالنتيجة حشد متنوع تشكلت منه كتيبتان بـ ٣٠٠ شخص تقريبًا لكل منهما، ونرى بين سائر أفراد كتيبتي «الألعاب» من جهة، الأمير م. غوليتسين الذي صار فيلدمارشالًا فيما بعد، لكنه آنذاك، في عام ١٦٨٧ أُدرج ضمن «الطبالين» لصغر سنه، وكذلك بوتورلين وهو من أبناء وجهاء موسكو، وغيرهما، ومن جهة أخرى نجد الكثير من الأشخاص ذوي المنحدر

الوضيع، ومنهم أكثرهم توفيقًا، الكسندر مينشيكوف بائع الفطائر السَّاخنة المتجول، وابن سائس خيل البلاط - «وتلك أوطأ رتبة، أوطأ من النبيل العادي» على حد تعبير كوراكين - لكنه حظي برعاية القيصر الذي قربه إليه، وبدأ من رتبة مراسل حتى وصل منزلة القائد العام للجيش الرُوسي، وحاز على لقب معالي الأمير - وبالمناسبة فإن هذا «المتسلط الذي يضاهي القيصر» (على حد تعبير بوشكين) - غدا فيما بعد من أكبر مختلسي أموال الدولة الرُوسية.

وراح أفراد كتيبتي الألعاب ببزاتهم الحقيقية يتدربون على كل الفنون العسكرية بعين ساهرة من جانب بطرس الذي لا يعرف الكلل، وكان عندهم بلاط خاص بهم، وإدارة وخزينة، وتدرب بطرس على كل درجات الفن العسكري ابتداء من الطبال، وعلى نهر ياوزا، في ضواحي بريوبراجينسكويه، أنشئ «معقل» بريسبورغ الذي كان يطوق ويفرض عليه الحصار وفقًا لكل قواعد الفن العسكري.

وفي ضواحي موسكو، على مقربة من بريوبراجينسكويه، يقع حي العجم الذي غدا مستقرًا للأجانب من مختلف الصُنَّاع والخبراء العسكريين الذين تقاطروا على العاصمة الرُوسية في عهد القيصر الراحل الكسي، فالقيصر نفسه وبعض المقربين إليه كانوا يدركون أن روسيا تخلفت كثيرًا عن أوربا الغربية في البناء العسكري، وفي مختلف الحرف والفنون؛ لذا استدعوا الخبراء الأجانب مقابل مخصصات كبيرة، وكان بين القادمين طبعًا مغامرون من الباحثين عن المال والمناصب، ولكن كان بينهم كثير من الخبراء والضباط الجادين الجيدين، وخدم بعضهم - وهم ليسوا بالقليلين - روسيا بدافع من الضمير، وليس خوفًا من عقاب أو طمعًا في ثواب، فعادوا عليها بنفع عظيم، فالجنرال باتريك غوردون الإسكوتلندي - مثلًا - كرس للخدمة العسكرية حوالي أربعين عامًا في روسيا التي غدت موطنًا ثانيًا له، وكان سلوك بطرس يثير أحيانًا الدهشة والاستياء عند الغيارى على عادات موسكو وتقاليدها ونقاوة

دينها، فقد قرب الأجانب من اللوثريين والكاثوليك الذين كان البطريرك يواكيم، وكثيرون غيره ينعتونهم بالزنادقة الممقوتين، بل الأبالسة، أما بطرس فقد بدأ من ذلك الحين بتحطيم التقاليد المتحجرة، وعين الأجانب ضباطًا برتبة عقيد وميجر وكابتن في كتيبتيه اللتين تحولتا في بداية التسعينات إلى فوجين، وأطلق عليهما اسم فوج بريوبراجينسكي، وفوج سيميونوفسكي باسم البلدتين اللتين خصصهما لهما القيصر، وفي ١٦٨٤ تدرب بطرس على رماية القذائف، ودرَّبه على هذا النوع الخطر والضروري من السِلاح مدرب أجنبي هو زومر.

وكانت نباهة بطرس، وميله إلى المعرفة والمهارات والفن العسكري قد جعلاه يبحث دومًا عن الأشخاص الذين هو بحاجة إليهم، وعن الأعمال والمستلزمات الضرورية.

وفي عام ١٦٨٧ استعد الأمير ياكوف دولغوروكي للرحيل إلى فرنسا كسفير، وتكلم مع بطرس الذي كان في الرابعة عشرة من العمر، وأشار الأمير في حديثه إلى الاسطرلاب الذي «يقيس المسافة دون حاجة إلى الوصول إلى نهايتها»، فقال له القيصر:

ـ أرني هذا الجهاز.

ـ غير موجود يا صاحب الجلالة، سرقوه.

ـ اشتر من فرنسا!

وافقه الأمير، وعندما عاد من فرنسا في العام التالي قدم إلى بطرس الاسطرلاب، بالإضافة إلى علبة أدوات هندسية مع مستلزماتها الرياضية، ولكن المشكلة لا أحد من حاشية القيصر يستطيع أن يوضح له كيفية استعمال الاسطرلاب، طلبوا من أحد الألمان أن يوضح لهم، لكنه نشر يديه عاجزًا، وأخيرًا بعثوا في طلب الهولندي فرانس تيميرمان فأوضح كل ما يخص الاسطرلاب والأدوات الهندسية، وشعر القيصر بارتياح بالغ، ومن ذلك الحين قرب الهولندي المذكور، وأخذ يتعلم على يده الحساب

والهندسة وإنشاء الحصون، ولم تكن معارف فرانس في هذه العلوم كبيرة (فقد ظلت محفوظة الدفاتر التي حل فيها المسائل الحسابية، وهي لا تخلو من أخطاء كثيرة...)، لكن توضيحاته ـ رغم إيجازها الشديد ـ كانت كافية لتجعل تلميذه المُجدَ النابه يتوصل إلى حقيقة الأمور بنفسه، فمنذ أن انتقل مع أمه من الكريملين إلى بريوبراجينسكويه فقد معلمه زوتوف، وفيما بعد عندما صار رب أسرة يراقب تعليم بنتيه، كان يتأسف كثيرًا لتردي مستواه التعليمي، وماذا بوسعه أن يقول إذا كان لم يسمع بالعمليات الحسابية الأربع إلا عندما بلغ الخامسة عشرة من العمر، وظل حتى آخر أيامه يعاني من صعوبة التعبير عن أفكاره على الورق بشكل فصيح، فقد كان يكتب دون أن يفصل دوما بين كلمة وأخرى، وما يكتبه فيه الكثير من الأخطاء الإملائية والنحوية.

ذات مرة كان يتجول مع تيميرمان في إسماعيلوفو، فدخل مستودعًا في معمل الكتان، وفيه كثير من الحاجيات العتيقة المحفوظة من زمان، وبضمنها حاجيات نيكيتا رومانوف ابن عم القيصر ميخائيل فيودوروفيتش جد بطرس، وهو رجل محب للاستطلاع، وكان يعتبر في حينه من المولعين بالقمصلات والعادات والمعارف الأجنبية، ومعروف أن البطريرك نفسه كان يلومه أحيانًا لأنه يرتدي الثياب الأجنبية، و يخرج إلى الشارع، فيثير دهشة أهالي موسكو بمظهره الغريب، ويبدو أن بطرس الشبيه بأبيه من حيث اهتمامه بالشؤون الأجنبية قد ورث عن والد عمه شيئًا من ذلك أيضًا، وعندما رأى في المستودع قاربًا بين سائر الحاجيات التفت إلى تيميرمان:

ـ ما هذا؟

ـ هذا، يا صاحب الجلالة، قارب إنجليزي، يستخدم في السُفن الكبرى، وميزته على القوارب الرُوسية إنه يسير بالأشرعة مع الرِيح وضدها.

ـ هل هناك من يستطيع إصلاح هذا القارب ويعرض على سيره.

ـ نعم يا صاحب الجلالة، يوجد شخص يستطيع إصلاحه.

كان لا يزال يقيم في موسكو هولندي آخر اسمه كريستيان براندت، وهو من الذين علموا قبل أكثر من عشرين عاما في بناء السُفن بأمر من القيصر الكسي في قرية ديدينوفو على نهو أوكا، آنذاك بنوا أسطولًا صغيرا مكونًا من سفينة «أوريل» الكبرى، وعدة سفن أخرى أصغر منها. وتم إيصالها إلى الفولغا، وقد أحرقت جميعًا في بداية انتفاضة ستيبان رازين (١٦٦٧)، وسرعان ما عثروا على نجار السُفن براندت، فقد كان يمارس النجارة في العاصمة، واستطاع كارشتين ـ هكذا حور بطرس اسمه من كريستيان ـ أن يرمم القارب، وينصب عليه صارية وأشرعة، وجرى تجريبه في نهر ياوزا، إلا أن النهر ضيق، فكان القارب يرتطم بضفتيه، وبأمر من بطرس نقل القارب إلى بركة بروسيانوي في إسماعيلوفو في بادئ الأمر، ثم إلى بحيرة بيرياسلافل شمالي موسكو بعد أن اتضح أن البركة أيضًا تضيق به، كانت دائرة البحيرة أكثر من ثلاثين كليو مترًا، وعمقها مناسب.

وهنا في مصب نهر تروبيج أنشأ بطرس وبراندت حوضًا لبناء السُفن، وبدأ العمل في بناء سفن جديدة، كان هذا القارب الذي نعته بطرس بالجد المؤسس للأسطول الرُوسي قد أيقظ في نفسه ـ وهو الفتى البرئ ـ حبًا للملاحة البحرية، ومن ذلك الحين تفهم تقاليد أسلافه، وصار يحلم بأسطول لم تكن تمتلك مثله روسيا ذلك البلد الشَاسع الذي تغسل البحار سواحله من الشمال، وكان ذلك بالمناسبة هو أحد أسباب انقطاع الدولة عن البحار من الشمال الغربي والجنوب، وكان الأسلاف في حينه يمتلكون منافذ إلى تلك البحار.

ومهما يكن من أمر فقد أتقن بطرس على أيدي المعلمين الأجانب مبادئ الحساب والهندسة وعلوم المدفعية والتحصينات، واطلع على قواعد تشييد القلاع، وتمكن من حساب مسار قنبلة المدافع والتحكم بالاسطرلاب، وكان ميله الشديد إلى المعارف التقنية والتطبيقات العملية قد تعزز ونما بتأثير الأجانب الذين يتحلون بالجدية والشطارة، وقد أفاده ذلك فيما بعد،

وظل يجمع تلك المعارف والمهارات طول عمره القصير ولكن الملئ لحد مدهش بالدراسة والعمل المتواصلين.

وإلى جانب الإبحار على السُفن في الطرق المائية، لم يكف بطرس عن «الألعاب المسلية» في بريوبراجينسكويه وضواحيها، وكانت الحملات على قلعة بريسبورغ الترابية باستخدام المدافع والمناورات الحربية في«سوح القتال» قد ربت الجنود وضباط الصف الروس على إجادة الشؤون العسكرية والرغبة فيها، ومما له دلالته أن بطرس قد عين أغلب ضباطه من الأجانب بوصفهم يتحلون بالخبرة اللازمة، لكنه أناط منصب القائد العام لفوجي بريوبراجينسكي وسيميونوفسكي بشخص روسي اسمه ارتامون غولوفين، وهو على حد تعبير كوراكين: «رجل غبي جدا، ، لكنه يجيد تمرين الجنود»، فهذا الأمير السَاخر الذي يفحم الآخرين كان يعرف ما يقول، إذ أنه خدم بنفسه في فوج سيميونوفسكي، وراقب وسمع مرارًا بالطبع كلام ذاك القائد العام.

كانت صوفيا والمقربون إليها ينظرون بعين التسامح والسخرية إلى ألعاب بطرس مع «المشاكسين»، كما نعتت الأميرة النابهة عادة أفراد فوجيه، واعتبرت تلك الألعاب العسكرية من مظاهر البلاهة والطيش عند أخيها القيصر الفتي العصبي، ثم إن الأم المتيمة بابنها بطرس كانت تعتقد هي أيضًا أنه مولع بتسلية فارغة تصرفه عن شؤون ومشاغل الدولة، أما صوفيا فقد كانت مرتاحة تمامًا لأن أخاها لا يهتم بشؤون الدولة، بل يتملص منها رغم مشاركته أحيانًا في مراسيم الكريملين السياسية والدينية، وتردده مع الحاشية على الأديرة في ضواحي موسكو لأداء الصلاة، وكان أكثر ما يهمها هو السُلطة، فراحت تحلم بتعزيز مواقعها في شؤون الحكومة وتتخذ إجراءات كثيرة لهذا الغرض.

في عهد صوفيا سارت الأمور في موسكو بانتظام لا خلل فيه، فالمديريات تعمل وتقام مراسيم استقبال السُفراء و يجري البت في القضايا اليومية في ميدان السياسة الداخلية والخارجية.

كانت مديرية العلاقات الخارجية تدير السياسة الخارجية والعلاقات مع الدول الأجنبية، وترأس هذه المديرية محبوب الأميرة الحاكمة الأمير فاسيلي غوليتسين، وهو رجل متعلم واسع الاطلاع يتكلم عدة لغات أوربية، وكان يستقبل الأجانب ويتباحث معهم في داره الواقعة في أوخوتني رياد (موسكو) والمؤثثة على الطريقة الأوربية، ففيها لوحات فنية ومرايا، وأفاد أولئك الأجانب في أقوال غير واضحة تماما وغير موثوق بها أنه كان يتطرق إلى ضرورة الإصلاحات والتعليم العام، بل وبلغ حد الكلام عن عتق الفلاحين وتخليصهم من نير القنانة، ويصعب القول بمدى مطابقة هذه الإفادات للحقيقة، وعلى أية حال فإن هذا الشخص، شأن غيره من معاصريه الأكبر والأصغر سنا (مثل أوردين ـ ناشوكين الذي كان لزمن ما «مستشارًا» للقيصر الكسي ميخائيلوفيتش، والمقربين إليه من أمثال رتيشيف وغيره)، يفهم أن روسيا المتخلفة لدرجة كبيرة عن البلدان المتقدمة في أوربا الغربية، بحاجة إلى النهوض وبلوغ أبعاد جديدة، واستيعاب ما هو جديد وقيم مما يتوفر في أوربا الغربية في الصناعة والتجارة والحرف والفنون والتعليم والعلوم.

وبذل غوليتسين ـ وهو من المثقفين الرُوس في أواخر القرن السَابع عشر ـ والساسة الأخرون كل ما في وسعهم لتوجيه البلاد على الطريق الجديد، وفي عهدهم وقبلهم بدأت في روسيا في الواقع تلك التجديدات والإصلاحات التي لم تكن حازمة ومتواصلة دومًا، لكن بطرس الأكبر استمر فيها بجرأة فيما بعد على نطاق أوسع وأشمل بكثير.

وفي عام ١٦٨٦ عقد «الصُلح الأبدي» مع بولونيا، ورفع ذلك بشكل ملحوظ منزلة الحكومة الرُوسية والوصية على العرش، وبعد عام من توقيع الصُلح؛ صار اسمها يذكر في وثائق الدولة الرسمية جنب اسمي القيصرين إيفان وبطرس، وصارت في البلاد وخارجها أقاويل بأن الأميرة تحلم بأن تعلن عن نفسها قيصرة.

وفي ١٦٨٧ نفذت روسيا التزاماتها كعضو في الائتلاف المناوئ للإمبراطورية العثمانية، فشنت حملة كبرى على إمارة القرم لأول مرة خلال مئتي عام من العلاقات معها، ونزولًا عند رغبة صوفيا قاد غوليتسين الآنف الذكر القوات الرُوسية وتعدادها مئة ألف رجل، وشنت تلك القوات الحملة في أيار (مايو)، لكن القيظ الشديد الذي اجتاح سهوب أوكرانيا الجنوبية، وشحة العلف للخيول، وانعدام مياه الشرب، وكثرة الحرائق (فقد أشعل أهالي القرم النار في الهشيم في مختلف أطراف السهوب) استنزفت وأضعفت العساكر الرُوسية، ولقى الكثيرون منهم حتفهم بسبب المجاعة والعطش والأمراض، وبعد عامين كرر غوليتسين الحملة ووصل إلى بيريكوب، أي إلى شبه جزيرة القرم نفسها، وكان استعراض العضلات هذه المرة أكثر تأثيرًا، فقد دحر الرُوس مرارًا فصائل القرم في السهوب، وفي أسفل الدنيبر، لكن ذلك لم يعد بنتائج جوهرية، ومن جديد سقط عدد كبير من القتلى بين الجند الرُوس، وعادت القوات إلى موسكو بدون نصر يذكر، ومع ذلك ينبغي القول بأن الجيوش الرُوسية شاغلت قوات القرم الكبيرة، وألحقت بها عدة هزائم، لكنها غير حاسمة، وعرضت قدرة روسيا (ففي تلك السنوات كانت الأستانة مذعورة: «الرُوس قادمون») وساعدت الحلفاء، وحاولت صوفيا أن تصور كلتا الحملتين على أنهما نصران مؤزران لمحبوبها، فانهالت عليه الأوسمة والهبات، وتلقى الكثير من الأحجار الكريمة والكؤوس والفراء والثياب، وأقيمت له احتفالات تكريمية ومهرجان بالنصر، ولم يرفض الأمير ضيعات جديدة وهبت له مع فلاحيها الأقنان، رغم ما يقال عن كلامه مع الأجانب بخصوص عتق الفلاحين.

... العلاقات بين بطرس وصوفيا تكاد تنفجر من زمان، فالقيصر الذي ترعرع أخذ ينظر إلى أفعال أخته الكبرى بتذمر سافر وانفعال صريح، مع أنه كان مشغولًا بالتدريب و«الألعاب المسلية»، تلك هي طباعة، فهو عنيد سليط اللسان معتمد على نفسه، زد على ذلك أن أمه التي يحبها ـ وكذلك المقربين إليها وإليه ليس فقط من آل ناريشكين المغضوب

عليهم- كانوا يلفتون انتباه القيصر إلى اختلال ازدواجية السُلطة في البلاد، وإلى تسلط الوصية على العرش في الواقع، وإلى ما تبنته من نوايا خطيرة، وعمل الأمير بوريس غوليتسين ابن عم محبوب صوفيا - وهو من أكثر المقربين إلى بطرس ولاء- وغيره من أفراد حاشية القيصر على تأجيج التذمر في نفسه واستثارة كبريائه وتوجيه تصرفاته.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٦٨٩ زوجت والدة بطرس ابنها لتقيد نزواته كما كانت تأمل، وجدوا له خطيبة حسناء اسمها يفدوكيا لوبوخينا، ووفق مفاهيم ذاك الزمان، يغدو القيصر عندما يتزوج رجلًا راشدًا وحاكمًا كامل الحقوق، ولا موجب للوصية على العرش، وفي عشية زفاف بطرس صارت في موسكو أقاويل عن انتقال زمام السُلطة إليه، وفي آذار (مارس) زار مديرية العلاقات الخارجية التي يترأسها غوليتسين، وطلب أن يجلبوا له وجبة جديدة من السلاح لفوجي «ألعابه»، ولم يكن مدير الدبلوماسية الرُوسية راضيًا عن هذه الزيارة، وبعد ثلاثة أشهر أقيم موكب كنائسي شارك فيه كلا القيصرين، وحملت الأيقونة المقدسة، وخرجت صوفيا مع القيصرين، فطلب منها بطرس أن تتركهما، لأن الأعراف لا تسمح للنساء بذلك، فرفضت، واشتاط بطرس غضبًا وأسرع على ظهر جواده إلى كولومنسكويه.

وسرعان ما عاد غوليتسين من حملة القرم الثَّانية، وكان يتعين على القيصرين أن يصادقا على بلاغ مكافأة المساهمين في الحملة، لكن بطرس رفض توقيعه، وأقنعوه بشق الأنفس بالعدول عن قراره، وعندما وصل غوليتسين، القائد العسكري الفاشل، إلى بريوبراجينسكويه ليشكر بطرس على المكافأت رفض الأخير استقباله، وثارت ثائرة «حاكمة عموم روسيا» صوفيا، كما أمرت بأن ينعتوها، واختمرت المعركة الحاسمة.

«فالشخصية الثالثة الشائنة» صوفيا، كما نعتها بطرس، تدبر في أغلب الظن انقلابًا حكوميًا، وأفاد بعض المعاصرين أن مدير القوات

الخاصة الجديد شاكلوفيتي، وهو فضلًا عن ذلك محبوب صوفيا الجديد، حاول أن يعتمد على أفراد تلك القوات لتنحية بطرس عن السُلطة وتنصيب صوفيا على العرش، وقد استدعى آمري أفواج القوات الخاصة إلى مقره في الضاحية، واقترح عليهم أن يكتبوا التماسًا بتنصيب الوصية قيصرة، وتردد الآمرون واعتذروا بأنهم أُميون، فهم يتذكرون ـ ولا بد ـ أحداث ١٦٨٢ والتنكيل بأفراد القوات الخاصة بعد انتهاء «العصيان»، لكن شاكلوفيتي أصر ووضع أمامهم التماسًا أعده مسبقًا باسم جميع أهالي موسكو، وليس أفراد القوات الخاصة وحدهم:

ـ كتابة الالتماس ليست صعبة.

ـ وإذا رفضه بطرس؟

ـ اقبضوا على ليف ناريشكين (خال بطرس) وبوريس غوليتسين، وعند ذاك لن يرفض.

ـ والبطريرك، والبويار؟

ـ البطريرك يمكن استبداله، أما البويار فهم شجرة يابسة عفنة.

لم يكن الآمرون يميلون إلى المؤامرة، فانصرفوا، إلا أن بعض أفراد القوات الخاصة كانوا ـ على العكس ـ يميلون إلى الإجراءات الحازمة، فقال أحدهم:

ـ سأدخل على البطريرك وأصرخ فيه وسيرتعب أشد الرعب.

وأضاف آخر:

ـ يجدر بنا أن نقتل الدبة أم القيصرة ناتاليا.

ـ سيدافع عنها ابنها بطرس.

ـ سنلحقه بها، فما الذي يمنعنا؟

ويقال إن أحدهم اقترح إلقاء عبوة ناسفة على بطرس أو وضعها في زحافته، واقترح آخر طعنه بالسكين أثناء إطفاء الحريق (فالقيصر يحب كثيرًا المشاركة في إطفاء الحرائق، وهي كثيرة في عصامة كل مبانيها من الخشب).

وسعت صوفيا و«عصبتها» إلى تأليب أفراد القوات الخاصة على بطرس وآل ناريشكين، ويقال إن الموظف ماتفي شوشين كان يرتدي قفطانا من الدمقس الأبيض؛ ليتخذ هيئة ليف ناريشكين، ويتردد في الليالي على خفراء القوات الخاصة، ويضربهم دون رحمة متظاهرًا بالثأر«لأقربائه» الذين قتلوا في عام ١٦٨٢:

ـ قتلتم أخوتي، وأنا أثأر لدمائهم منكم.

وكان أحد المتآمرين من مرافقي شوشين «يهدئه»قائلًا:

ـ يا ليف كيريلوفيتش، لماذا تضربهم حتى الموت؟ فهم مسيحيون على أية حال.

وانتشرت في العاصمة الإشاعات عن التنكيل الذي يمارسه «أقرباء» بطرس.

وفي ليلة ٧ و٨ آب (أغسطس) قام في الكريملين هرج ومرج، فقد وصلت سرًا رسالة تقول: «إن أفراد فوجي ألعاب بطرس قادمون إلى موسكو ليقتلوا صوفيا والقيصر إيفان وكثيرين غيرهما»، وفي لمح البصر أغلقت كل بوابات الكريملين، وهبت إحدى فصائل القوات الخاصة حاملة السلاح في الكريملين، واستعدت فصيلة أخرى من ٣٠٠ شخص في حارة لوبيانكا، ولا أحد يعرف لماذا؟ ربما من أجل الحراسة، وربما لغرض آخر.

وأسرع اثنان من أنصار بطرس السريين في القوات الخاصة تحت جنح الظلام من موسكو إلى بريوبراجينسكويه، فقد تصورا أن زملاءهما في موسكو يتأهبون لحملة على بطرس ولم يجتمعوا لمجرد الحراسة، وأخبرا القيصر بذلك، وكان قد نهض من النوم، ومن خلال النعاس لم يفهم تمامًا ما حدث، فارتعب أشد الرعب، وفرّ بثيابه الداخلية إلى أقرب غابة، وأصاخ السمع متوقعًا أن يسمع سنابك خيل أفراد القوات الخاصة المعادية، ولم يسمع شيئًا، لكن الخوف لم يزايله: فإلى أين يهرب؟ وما العمل؟ وسرعان ما جلبوه له ثيابه وسرجه وحصانه، وقضى بطرس الليل في الطريق إلى ملجأه دير الثالوث، والقديس سيرغي يرافقه ثلاثة أشخاص، ووصله في

الصباح وهوى على السرير وراح يبلغ الأرشمندريت- والدموع تنهمر من عينيه- بالخطر الرهيب الذي يتهدده كما تصور، وطلب منه أن يأويه و يحميه.

يبدو أن القيصر كان صادقًا في أفكاره وخوفه وتصرفاته، لكن نبأ حملة القوات الخاصة على بريوبراجينسكويه كان كاذبًا... كانت هناك بالطبع أقاويل وإشاعات، وربما لعبت في ذلك الجو المكهرب المتوتر في تموز (يوليو) وآب (أغسطس) دور فتيل الإشعال، فأثارت ردَ فعل متسلسلًا وأدت إلى الانفجار، ولعلّ أحدًا قد مهّد لتلك الأحداث، واستفاد من الوضع، فليس من قبيل الصدفة أن يفكر البعض آنذاك ويتكلمون عن دهاء الأمير بوريس غوليتسين، وثمة مسألة أخرى تلفت الأنظار، فإن بطرس لم يكن يتميز بالجبن لا في سن الفتوة ولا في سن الرشد، فقد شارك في المعارك وسط أزيز الرصاص ودوي القنابل، وتشمم البارود كما يقال عادة، وأصيب بجراح أكثر من مرة، ولم يكن يخشى اقتحام اللهيب أثناء الحرائق ودخول البحر في العواصف لإنقاذ المستغيثين، أما في هذه الحادثة فقد ترك أمه وزوجته الحامل، وجميع أقاربه، وأفراد فوجيه الذين كان بوسعهم أن يدافعوا عنه، ترك الجميع وفرّ بجلده، فماذا يعني ذلك؟ ربما أدى دوره بحذافيره وفق مخطط وضعه م ع مستشار فطين، لكن رعبه في غرفة النوم وفي الأجمة كان حقيقيًا، فقد كان بدنه كله يرتعش وهو بالقميص وحده، والدموع تنهمر من عينيه، وهو في حجرة الدير...

وفي ٨ آب (أغسطس) بدأ الخوف يزايل بطرس في الدير، فقابل أمه وأفراد فوجيه من الجنود وفوج سوخاريف من القوات الخاصة، وكانت أخته الوصية على العرش تقوم بجولة لتؤدي الصلاة دون أن تعلم بما حدث، وكان يرافقها عدد من أفراد القوات الخاصة، فهي لم تكن تنوي مهاجمة أخيها، وقد فوجئت بخبر فرار بطرس إلى الدير، وأثار هذا الخبر قلقها، كما دهش محبوبها شاكلوفيتي، وقال عن بطرس:

- جن جنونه وفر هاربًا.

وفي تلك الأثناء مارس بطرس نشاطًا مسعورًا، بعث إلى موسكو أمرًا إلى آمرى العساكر والقوات الخاصة؛ بأن يحضروا إليه فورًا مع أفواجهم، وزحفت تلك الأفواج إلى الدّير، واخفقت كل محاولات صوفيا وشاكلوفيتي لإيقافها، وبعثت صوفيا البطريرك يواكيم إلى أخيها لإقناعه وتهدئته، إلا أن البطريرك ظل في الدير عندما وصله، وفعل الشيء ذاته الكثير من البويار والنبلاء.

وتشكت صوفيا إلى قادة القوات الخاصة مدركة أنها بدأت تفقد زمام الأمور:

ـ أرسلت البطريرك إلى أخي لأتفق معه، لكنه ظل هناك ولا يريد العودة إلى موسكو.

ولم يؤيد قادة القوات الخاصة صوفيا، فتنازلت عن كبريائها، وتوجهت إلى بطرس بنفسها، وبلغ الدير نبأ قدومها، فاستقبلها في مدخله البويار ترويكوروف، فالقيصر منعها من دخول الدير، وإذا لم تذعن للمنع ستلقى جزاءها، ولم يبق أمامها إلا العودة إلى العاصمة وانتظار ما يخبئه لها المصير.

وسيطر بطرس على الموقف (فقد وصلته كل الأفواج تقريبًا، والتزمت جانبه أغلبية النبلاء من العسكريين)، وفرض إرادته بتسليم شاكلوفيتي وأشياعه بالدرجة الأولى، فقد بلغ القيصر نبأ الاجتماع السري الذي عقد عند محبوب صوفيا، وتفاصيل المؤامرة التي حيكت فيه، وتوسلت صوفيا من جديد إلى أفراد القوات الخاصة المتبقين في العاصمة بأن يؤيدوها ولا يسلموا قائدهم، لكنهم لم يؤيدوها هذه المرة أيضًا، فاضطرت يائسة على القبول بمطلب أخيها، وجرى في ٧ أيلول (سبتمبر) نقل شاكلوفيتي والآخرين إلى الدير، وبعد تحقيق وتعذيب أعدموا بعد خمسة أيام، وبعث القيصر المنتصر رسالة إلى أخيه إيفان في موسكو: «من العار، يا صاحب الجلالة، أن تحكم هذه الشائنة الدولة بدلًا منا ونحن راشدان».

وسرعان ما وصل بطرس إلى موسكو، وخرّج أفراد القوات الخاصة من موسكو، ورقدوا على امتداد الطريق، ووضعوا رؤوسهم على قرم مسالخ

غـرزت فيها فؤوس، بهذه الطريقة طلبوا الصفح والعفو من القيصر كيلا يعدمهم، فعفا عنهم.

أمـا صوفيا فقـد نحيت عن البلاط في أواخر أيلول (سـبتمبر)، وانتقلت إلى صومعة في دير نوفوديفيتشـي جنوب موسكو، واتخذت لنفسها اسم الراهبة سوزان.

وبدأ حكم بطرس، وكان حسـب الظاهر حكمًا مشـتركًا مع أخيه الأكبر إيفان الذي وعد بطرس في رسـالته تلك بأن يحترمه احترامه لأبيه، إلا أن إيفـان المختـل العقـل ظل كالسـابق غـير مهتم بشـؤون الدولة ولا يتدخـل في شـيء، وظل الحال على هذه الصورة حتـى توفي في عام ١٦٩٦، كان اسمـه يذكـر في كل الوثائـق الرسميـة، وكان يحضر مراسـيم الكريملين ولا شيء آخر.

وعندمـا اسـتلم بطـرس السُـلطة كاملة لم يعرهـا اهتمامًـا! فقد ظل كالسَـابق مولعا «بألعاب مـارس»، وانتقلـت الإدارة الفعلية في البلاد من الأخت المخلوعة إلى أم القيصر ناتاليا، والمقربين إليها.